﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

[البقرة: 145]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إعراض أهل الكتاب عن الحقّ لفرط عنادهم، وفي هذا تثبيت لقلب النّبيّ

لمّا ذكر في الآية السّابقة أنّهم يَعلَمُون ولا يَعملون مُكابرةً منهم، بنَى على ذلك أنّهم لا مَطْمَعَ في اتّباعهم القبلة؛ لدَفعِ توهّم أنْ يطمع السّامع باتّباعهم؛ لأنّهم يعلمون أحقيّتها، فَعَدَمُ اتّباعهم ليس عن علم بل عن هوى.

قال الهرري: "لمّا ذكر لنبيه ﷺ ما يقوله السّفهاءُ من اليهودِ عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، وأمر رسولَه ﷺ بأن يتوجّهَ في صلاته نحو الكعبة، وأعلمه أنّهم يَعلَمُون أنّه الحقُّ وهم يكتمونه، ولا يرتِّبون على العلم به مقتضاه، سلَّاه ﷺ عن قبولهم الحقَّ بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات الّتي كلُّ معجزة منها تقتضي قبولَ الحقِّ ... ما تبعُوك، ولا سلكوا طريقك، وإذا كانوا لا يتبعونك مع مجيئك لهم بجميع المعجزات ... فأحرى أن لا يتّبعوك إذا جئتهم بمعجزةٍ واحدة، والمعنى بكل آيةٍ يدلُّ على أن توجّهك إلى الكعبة هو الحقُّ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: من الجذر (هَوِيَ) أَصْلُ مادّة (هويَ) يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ، أَصْلُهُ الهَوَاءُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ لِخُلُوِّهِ، قَالُوا: وَكُلُّ خَالٍ هَوَاءٌ، وَهَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي:

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25.

سَقَطَ[1]، وَأَمَّا الهَوَى فَمِنَ المَعنَيَيْنِ جَمِيعًا، لأَنَّهُ خَالٍ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي[2]، وهو: محبةُ الإنسانِ الشّيءَ وغلبتُه على قلبه، ومتى أُطلق لم يكن إلّا مذمومًا ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النّازعات: 40]، وبهذا المعنى كل (الهَوَى)، وجمعه (أهواء)[3].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من الجذر (ظَلَمَ)، يدلُّ أَصْلُ مادّة (ظلم) على خِلَافِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، ووَضعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوضِعِهِ تَعَدِّيًا[4]، ويدلُّ على حجبِ ما ينبغي أو ما يُسْتَحقّ، أي منعه أو انتقاصه، كمَنْع الضّوء في حالة الظّلمة، فالظّلام يحجبُ الرّؤية[5]، والظُّلْم: المَيلُ عَنِ القَصد[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَـــنزُّلُ أهـل الكتاب محجّة الإسـلام ليس لشُبهة، وإنّما لفرط عنادهم وتكبُّرهم، وفي الآية تحذيرٌ من اتّباعِ الهوى، وتهييجٌ للثّبات على الحقّ

يُبيّنُ الله ﷻ لنبيّه ﷺ في هذه الآية الكريمة، بأنّ الّذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى لن يتّبعوا قبلتك الّتي حوّلك الله تعالى إليها مهما بسطتَ بين أيديهم من آياتٍ قاطعةٍ وبراهينَ ساطعةٍ؛ لأنّ تركهم اتّباعك ليس مَبْنيًّا على شبهة تزيلُها بإيراد الحُجّة، وإنّما هم قومٌ مُعانِدون يَنْطلقون في مَواقِفهم من مُكابرَةٍ وتصلُّبٍ وعِناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك بأنّك على الحقّ المبين، ثمّ حسم أطماعهم مُوضِحًا أنّ نبيّه ﷺ لا يتوجَّهُ إلى قبلتهم على وجه التّأبيد؛ إذ صوّرت الآية تَصَلُّبَ كُلِّ فريقٍ وثباتَهُ على موقفه: فريق أهل الإيمان وفي مقدّمتهم محمّد ﷺ لا يتخلّون ولا يتزحزحون عن الحقّ الّذي هم عليه، وفريق الّذي أوتوا الكتاب بأنّهم لا يُفارقون الباطل الّذي يُصرّون على الاستمساك به، وفي هذا البيان إراحةٌ لقلب النبيّ ﷺ ليَكُفّ عن التّطلّع إلى هدى بعضهم، ثمّ أخبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

جلّ شأنه بأنّ اليهودَ والنّصارى على - اتّفاقهم وتظاهرهم على معاداتكم ومخالفتكم في شأن القبلة - فإنّهم مُختلفون فيما بينهم لاعتداد كل فريق بقبلته وتعصّبه لها، ثمّ وجّه سبحانه نبيّه ﷺ بأنّك لئن اتّبعت أهواءهم -على وجه الفرض والتّقدير- من بعد العلم الّذي جاءك به الوحيُ، فإنّك تكون من الظّالمين.

وفي الآية: خطاب لجميع الأمة، وهو تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام، وتعليمٌ للأمّة جميعها بأن يبتعدوا كلّ البعد عن اتّباع قبلة الآخرين، واقتفاء آثارهم في أعمالهم وتشريعاتهم، ومحاولة استرضائهم بالتّقرّب من حِمَى ما يدينون به، قال الزّمخشريّ: "وفي ذلك لُطفٌ للسّامعين، وزيادةُ تحذيرٍ واستفظاع لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته، ويتّبعُ الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقّ"[1].

حقيقةُ الإنسان الجدليّة وما يجبُ إزاءها من الثّباتِ

تتكلّم الآيةُ عن حقيقةٍ إنسانيّةٍ مفادُها أنّ أصحابَ الأهواء لا يتّبعون الحقّ مهما جئت لهم بأدلّة وحجج، وعلى أصحاب الحقّ أمام هذا العناد أن لا ينحرفوا عمّا هم عليه، وإذا حدث فإنّ ذلك ظلمٌ للحقّ ومنعٌ للصّوابِ؛ لأنّه سيحجبُ المعرفةَ الحقّةَ أمام النّاس، وهذا ظلمٌ للنّاس وللحقّ، ولا ينبغي تجاوز الخلاف بين الملل المختلفة وتحقيق التّقارب من خلال اتّباع أهوائهم والاعتراف بخطئهم وإعطائه صفة الحقّ.

❁ الإيضاحُ اللّغويُّ والبلاغيُّ:

موضعُ قوله ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ من الآيات السّابقة:

معرفةُ اليأسِ من الغافلِ، تُوَرِّثُ راحةَ العاملِ

قال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "في هذا تهدئة روعته ﷺ وتطمينٌ له حتَّى لا يتهالك

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

على عدم إيمانهم وهو عامٌّ في جميع المعجزات"[1]، وهو "تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَنْ مُتَابَعَةِ أَهلِ الكِتَابِ لَهُ؛ أَعْلَمَهُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ، وَهُمْ يَكتُمُونَهُ، وَلَا يُرَتِّبُونَ عَلَى العِلمِ بِهِ مُقتَضَاهُ، ثُمَّ سَلَّاهُ عَنْ قَبُولِهِمُ الحَقَّ، بِأَنَّهُمْ قَدِ انتَهَوْا فِي العِنَادِ وَإِظْهَارِ المُعَادَاةِ إِلَى رُتبَةٍ، لَوْ جِئْتَهُمْ فِيهَا بِجَمِيعِ المُعْجِزَاتِ الَّتِي كُلُّ مُعجِزَةٍ مِنْهَا تَقْتَضِي قَبُولَ الحَقِّ، مَا تَبِعُوكَ وَلَا سَلَكُوا طَرِيقَكَ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَكَ، مَعَ مَجِيئِكَ لَهُمْ بِجَمِيعِ المُعجِزَاتِ، فَأَحْرَى أَنْ لَا يُتبِعُوكَ إِذَا جِئْتَهُمْ بِمُعْجِزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالمَعْنَى: بِكُلِّ آيَةٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَوَجُّهَكَ إِلَى الكَعْبَةِ هُوَ الحَقُّ"[2].

اجتماعُ القسمِ والشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقدير الجواب، وأداءُ المعاني على وجه الصَّواب

اجتمع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ قسمٌ وشرطٌ، أمَّا القسمُ فدلَّت عليه اللامُ؛ فهي "تُؤْذِنُ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ مُتَقَدِّمٍ؛ فَقَدِ اجْتَمَعَ القَسَمُ المُتَقَدِّمُ المَحْذُوفُ، وَالشَّرْطُ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، فَالجَوَابُ لِلقَسَمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَّا تَبِعُواْ﴾، وَلِذَلِكَ لَمْ تَدْخُلْهُ الفَاءُ"[3]، والتقدير: "وعزَّتي وجلالتي لَئِن جئتَ يا محمدُ اليهودَ والنصارى الذين أعطوا التّوراة والإنجيل ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: بكل حجّةٍ قطعيّةٍ دالّةٍ على صدقك في أنَّ تحوّلك بأمرٍ من الله، وذلك بأنّهم قالوا: ائتنا بآيةٍ على ما تقول، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ الكعبة، وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[4].

وإذا اجتمع الجزاءُ والقسمُ؛ فأيّهما سبق الآخرَ وتَصدّر، كان الجوابُ له، ومثالُ تصدُّرِ القسم قولك: "واللهِ لَئِنْ أتيتَني لأتيتُك"[5]، وجواب القسم المحذوف سدَّ مسدَّ جواب الشّرط[6]، فتقدير القسم:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/456.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/141.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/140.

والله لَئِنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وتقدير الشّرط: إنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، "وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[1].

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه: ﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الإيـذانُ بكمالِ سـوءِ حالِهم من العناد مع علمهم بالكتاب

سبق التَّصريحُ بذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الآية السّابقة، فالظَّاهر أن يقول: (ولئن أتيتهم بكلّ آية) بالإضمار، ففي قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ "وضع الموصولُ موضعَ المضمرِ؛ للإيذان بكمالِ سوءِ حالِهم من العناد، مع تحقّق ما يُرْغِمُهم منه من الكتاب النّاطق بحقِّية ما كابروا في قبوله"[2]، أي: "أنّهم قد انتهوا في العناد، وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات ... ما تبعوك، ولا سلكُوا طريقك"[3]، فالآيةُ جاءت بالظّاهر؛ والقاعدة العامّة في استعمال الإظهار موضع الإضمار أن يكون المقصودُ منه زيادةَ العنايةِ والتّمكّن في الذّهن، ومزيدُ العناية هنا تفسَّر بالإعلان بمذمَّتهم؛ حتّى تكون هذه الجملة صريحة في تناولهم؛ فهو بيان بكمال سوء حالهم[4].

المجازُ المرسلُ في قولِه: ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾:

إطـلاقُ لفـظِ (كـلّ) وإرادةُ الكثرة شائعٌ في كلام العرب

(كلّ) من ألفاظ العموم والشّمول، وفي هذا الموضع لا يرادُ به التّعميم، بل التّكثير؛ حيث أطلق لفظ الكلّ وأراد الكثرة؛ فهو مجاز لجعل الكثير من أفراد شيء مشابهًا لمجموع عموم أفراده؛ تشبيهَ العدد الكثير من أفراد الجنس بعمومِ جميعِ أفراده، فالمراد بـ ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: آيات كثيرة على أنّ استقبال الكعبة هو قبلة الحنيفيّة، وإطلاق لفظ (كلّ) على الكثرة شائع في كلام العرب[5]،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.

ومعنى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "بكلّ برهان قاطع أن التّوجّه إلى الكعبة هو الحقُّ، فليس المرادُ جميعَ الآيات، بل الآياتُ الّتي لها علاقة "في أمر القبلة؛ أي: في أنّ تحوّلك بأمر من اللّه"[1].

فائدةُ التّخصيص في قوله: ﴿قِبْلَتَكَ﴾:

"أَضَافَ تَعَالَى القِبْلَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ المُتَعَبَّدُ بِهَا وَالمُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا"[2]، ولأنَّ الخطاب في سياقِ الآيات له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾، و﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فلذلك كان المناسبُ إفرادَه بالخطابِ في قولِه: ﴿قِبْلَتَكَ ۚ﴾.

الغرضُ المجازي للخبر في ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾:

الأمـرُ والنّـهـيُ بصيغةِ الخبر يدلُّ على المبالغةِ في طلبهما

قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ جملةٌ خبريةٌ اختُلف في معناها؛ فقيل هي محمولةٌ على الإنشاء، وقيل: محمولة على الخبرِ المحض، فمَن حملها على الإنشاءِ ذهب إلى وجهين، الأوَّل: "النّهي، وطلب الدوام على قبلته؛ أي: لا تتبع قبلتهم، ودُمْ على قبلتك التي حوَّلناك إليها – وهي الكعبة – وإلّا فهو معصومٌ عن اتِّباع قبلتهم بعدَ ورود الأمر بالتحوّل"[3]، والثّاني: الأمر، فهي إخبارٌ لفظًا، ولكنّها تتضمّن الأمر، أي: اثبتْ ولا تتبع قبلتهم، والأمر بالخبر يدلُّ على المبالغة في قوّة الأمر، فتحويل الكلام من الإنشاء الّذي لا حقيقة له قابلة للصّدق والكذب، إلى كلام له حقيقة في الوجود قابلة للتّصديق والتّكذيب يعطي قوّة معنويّة له، ثمّ إنّ الخبر جاء منفيًّا على وجه المبالغة في النّفي، مما يزيدُ المبالغةَ في الأمر المراد من الخبر، والنّفي البليغ يتحصّل من الباء في خبر ما[4].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 3/147.

ومن ذهب إلى أنَّها خبريَّة، قال: "هذه القبلةُ باقيةٌ غيرَ منسوخةٍ"[1]، والغرضُ من ذلك التأييس "﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ حسمٌ لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون صاحبَنا الّذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم"[2].

المقارنةُ بين النَّفي بالجملة الاسميّة والفعليّة:

جملةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ أَشدُّ في النَّفْيِ مِنْ قولِه: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ "مِنْ حَيْثُ كَانَتِ اسْمِيَّةً تَكَرَّرَ فِيهَا الاسْمُ مَرَّتَيْنِ، وَمِنْ حَيْثُ أَكَّدَ النَّفْيَ بِالبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِتَابِعٍ﴾"[3]، ولم يقل: وما أنت تتّبع قبلتهم، مع أنّ النّفي بالفعل أعمّ؛ لأنّه مطلقٌ، ونفي الأعمّ يستلزم نفي الأخصّ، وذلك "أنّ الأوّل جاء على الأصل في أنّهم مصمّمون على عدم اتباعه، وأمّا نفيه هو بالاسم فلأنّ أفعاله ﷺ ثابتةٌ لازمةٌ؛ فهو إذا اتّبع أمرًا ثبتَ عليه ولا ينتقل عنه؛ فنُفي على حسب ما هو عليه"[4].

سرُّ إفرادِ القِبلة في قوله: ﴿قِبْلَتَهُمْۚ﴾:

بُطلان القبلتين يجعل لهما حكمًا واحدًا

"أَفْرَدَ القِبْلَةَ في قَوْلِهِ: ﴿قِبْلَتَهُمْۚ﴾، وَإِنْ كَانَتْ مُثَنَّاةً، إِذْ لِليَهُودِ قِبْلَةٌ، وَلِلنَّصَارَى قِبْلَةٌ مُغَايِرَةٌ لِتِلْكَ القِبْلَةِ، لأَنَّهُمَا اشْتَرَكَتَا فِي كَوْنِهِمَا بَاطِلَتَيْنِ، فَصَارَ الاثْنَانِ وَاحِدًا مِنْ جِهَةِ البُطْلَانِ، وَحَسَّنَ ذَلِكَ المقابلَةُ فِي اللَّفْظِ، لأَنَّ قَبْلَهُ ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾"[5]، وكذلك فإنَّ إفرادَ القبلة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ مع كونهما قبلتين؛ لأنّه إذا اتّبع قبلة إحدى الطّائفتين كان غير متّبع قبلة الطّائفة الأخرى[6].

التّيئيس والتّأنيس في قوله ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾:

في قوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ تأنيسٌ للنّبيّ ﷺ بأنّ هذا دأب أهل الكتابِ، وشِنْشِنتُهم من الخلاف، فقديمًا خالفَ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/45.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28، والزمخشري، الكشاف: 1/203-204.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/36.

بعضُهم بعضًا في قبلتهم، فخالفتِ النّصارى قبلةَ اليهودِ، وشريعةُ اليهودِ هي أصلُ النّصرانيّة[1]، وقد يكون المعنى: هم لم يتّبعوا قبلة بعضهم، فكيف يجوز لك أنْ تتّبع قبلتهم؟!، فلو كانوا متّفقين لكان من الممكن أنْ يكونَ اتّباعُ قبلتهم ممّا لا يمتنعُ عقلًا أنْ يتطلّع له، ولكنّهم قد اختلفوا في قبلتهم، فأنّى لك أن تتّبع فريقًا منهم!

مرجعُ الضّمير ودلالته في ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾:

الإشَـارَةُ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ والنَّصارى لَا يلتقيانِ في قبلةٍ واحدة

عادَ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ "عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ اليَهُودَ لَا يَتَّبِعُونَ قِبْلَةَ النَّصَارَى، وَلَا النَّصَارَى تَتَّبِعُ قِبْلَةَ اليَهُودِ؛ وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ لَا تَتَنَصَّرُ، وَإِلَى أَنَّ النَّصَارَى لَا تَتَهَوَّدُ، وَذَلِكَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ إِفْرَاطِ العَدَاوَةِ وَالتَّبَاغُضِ"[2].

دلالةُ الفرضِ والتّقديرِ في قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾:

بيانُ غضبِ الله تعالى لمن يتركُ قبلته، ويتبع أهلَ الكتابِ

بعد أن أفصح قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ وجه الحقيقةِ السَّافرةِ، قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وهو "كلامٌ واردٌ على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتَّبعتهم مثلًا بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطفٌ للسامعين وزيادة تحذير، واستفظاعٌ لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته ويتّبع الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقِّ"[3]، وفيه بيانُ شديد غضبِ الله تعالى لمَن يتَّبع اليهودَ والنَّصارى، ويُفرِّط في أمر الدِّين، فإذا كان الخطابُ مع رسولِ الله ﷺ الذي كان منه ما كان في أمرِ القبلةِ، فكيف بمن دونه من المؤمنين؟! وهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: 65].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/37.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

دلالةُ (اللّام) على القسمِ المحذوف في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

"﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، اللَّامُ أَيْضًا مُؤْذِنَةٌ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الجَوَابُ بِقَوْلِهِ: إِنَّكَ"[1].

إيثارُ الجمع على الإفراد في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

جُمِع الهوى في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ "لاختِلَافِ أَغرَاضِهِمْ وَمُتَعَلَّقَاتِها وَتَبَايُنِهَا[2]، والأهواءُ هي: "الأمورُ الّتي يهوَوْنها ويحبّونها منك، ومنها رجوعك إلى قبلتهم"[3].

إيثارُ التّعبير عن القبلة بالأهواء ﴿ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

اتّباعُ القبلةِ عند أهـل الـكـتـابِ هوًى؛ لا دينٌ ولا التزام

الاتّباعُ يكون للقبلة، ولم يقل: (ولئنِ اتبعتَ قبلتهم)، ولكنّه وضع بدلها (الأهواء)؛ ليدلّ على أنّ اتّباعهم القبلة ليس عن علم، بل كان من آثار الخلاف بينهم، ولذلك أعقبه بـ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾، فهم إنّما يتّبعون الهوى، وليس هوًى واحدًا، بل لكلٍّ هواه ورغبته، وإنّما عبر عن اتّباعهم القبلة باتّباع الهوى؛ لأنّه نابعٌ من غلبة حبّ الشّيء على القلب، فهو من المحبّة للشّيء أو للأشخاص وليس للعلم المجرّد الصّحيح، ولذا فإنّ الهوى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، ممّا يخالف العقل والعلم والحقّ.

دلالة ﴿مِّنۢ﴾ في ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

"وَأَمَّا دُخُولُ ﴿مِّنۢ﴾ فَفَائِدَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ بَيَانُ أَوَّلِ الوَقْتِ الَّذِي وَجَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخَالِفَ أَهْلَ الكِتَابِ فِي أَمْرِ القِبْلَةِ، أَيْ: ذَلِكَ الوَقْتُ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ فِيهِ إِلَى نَحْوِ القِبْلَةِ، إِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، كُنْتَ ظَالِمًا وَاضِعًا البَاطِلَ فِي مَوضِعِ الحَقِّ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/179.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/31.

بين اتّباع العلم واتّباع الأهواءِ:

الإسـلامُ قائمٌ عـلى العـلـم، بـخـلافِ الـدِّيـنِ الـقـائـمِ على الهوى

أطلق لفظَ العلم على الوحي؛ فالعلمُ بشأن القبلة تحقَّقَ عن طريق الوحي، ووَضَعَ مقابلَه الهوى؛ ليبيّن أنّ مخالفةَ الوحي في الشّؤون الّتي لا يُتَوصَّل لها إلّا من خلال الوحي لن تكون إلّا خلافًا للعلم واتّباعًا للهوى، كما يلفت عناية هذه الأمّة إلى مكانة العلم، ويُحَذِّرُهُم من الزّيغ عنه، واتّباع الهوى؛ فإنّ الهوى أضلّ أصحاب الأديان السّابقة.

المجازُ في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

أَطْـلَـقَ اسْـمَ الأَثَـرِ عَـلَى الـمُؤَثِّرِ، وسَمَّى تِـلْـكَ الـدَّلَائِـلَ عِـلمًا، مُبَالِغَةً وَتَعْظِيمًا

معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: "أَيْ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالآيَاتِ الَّتِي تُفِيدُ لَكَ العِلْمَ وَتُحَصِّلُهُ، فَأَطْلَقَ اسمَ الأَثَرِ عَلَى الـمُؤَثِّرِ، سَمَّى تِلْكَ الدَّلَائِلَ عِلْمًا، مُبَالِغَةً وَتَعْظِيمًا وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ العِلْمَ مِنْ أَعْظَمِ المَخْلُوقَاتِ شَرَفًا وَمَرْتَبَةً"[1]، والعلمُ الّذي جاءه "من أمر القبلةِ بأنَّك لا تعود إلى قبلتهم، وأنَّ القبلةَ هي الكعبةُ، وأنَّ دينَ اللهِ هو الإسلامُ، وقيل معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأنَّ اليهود والنّصارى مقيمون على باطلٍ وعنادٍ للحقِ"[2].

فائدةُ المبالغةِ في الصّفة في ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾:

شـرعُ الـلـه لا مـهـادنـةَ فـيـه، فـمن يتّبع قبلةَ أهل الكتابِ يَنَلْهُ التَّهديدُ البليغ

قال سبحانه مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، ولم يقل: (إنكَ إذًا لظالمٌ)؛ لأنّ قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ أبلغُ في الدّلالة على صفة الظّلم، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشّعراء: 168]: "﴿مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ أبلغُ من أنْ يقول: إنّي لعملكم قالٍ، كما تقول: فلانٌ من العلماء، فيكون أبلغَ من قولك: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زمرتهم، ومعروفةٌ مساهمتُه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/27.

لهم في العلم"[1]، فيكون المعنى: ستكون من المشهورين بالظّلم، داخلًا في زمرتهم، وسببُ ذلك أنَّ ما يصدر عنه ﷺ ليس كما يصدر عن غيرِه، ففيه أنَّ أمرَ الشَّرعِ لا مهادنةَ فيه، وأنَّ على الجميع أن يلتزمَه، ولو كان رسول الله ﷺ، فأكَّد "تهديدَه وبالغ فيه تعظيمًا للحقِّ المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه، وتحذيرًا من متابعةِ الهوى، واستفظاعًا لصدورِ الذنبِ عن الأنبياء"[2].

كثرةُ المؤكّدات في الآية:

مقصودُ كثرةِ المؤكّدات المبالغةُ في مضمونها

في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ "أكّدَ تهديدَه وبالغَ فيه من سبعةِ أوجه: أحدها: الإتيان باللّام الموطّئة للقسم، ثانيها: القسم المضمر، ثالثها: حرف التّحقيق وهو(إنَّ)، رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية، وخامسها: الإتيان باللّام في الخبر، وسادسها: جعله من الظَّالمِينَ، ولم يقل (إنّك ظالم)؛ لأنّ في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم، وسابعها: التّقييد بمجيء العلم تعظيماً للحقّ المعلوم، وتحريصًا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذّنب عن الأنبياء"[3].

توجيه المتشابه اللّفظي:

في سورة البقرة: قد سبقت آيةٌ تُشابِهُ هذه الآية لفظيًّا، وهي قوله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: 145].

فعبّر هنالك باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وهنا باسم الموصول ﴿مَا﴾، وهنالك ﴿بَعْدَ﴾ وهنا ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾، وجعل جزاء الشّرط هنالك انتفاء الوليّ والنّصير، وجعل الجزاءَ هنا أن يكون من الظّالمين؛ فللسَّائل أن يسأل عن سرِّ ذلك؟

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/331.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/28.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.

والجواب: أنَّ السّياق الّذي جاءت فيه الآية [البقرة: 120] كان مسبوقًا بالحديثِ عن أصل ملّة الإسلام، وبطلان غيره من الملل بالنّسخ، وإثبات عناد الفريقين، وإثبات صحّة رسالةِ الإسلام، فكلّ هذه الموضوعات هي أصرحُ بالعلم؛ فكان من المناسب أن يكون الحديث عنها بالاسم الموصول الصَّريح في الموصوليّة وهو ﴿ٱلَّذِى﴾، أمّا الآية الثّانية [البقرة: 145] فهي حديثٌ عن القبلة فقط، وهو تشريع فرعيّ يمثّل جزءًا يسيرًا من العلم، فجاء التّعبيرُ عنه بالاسم الموصول الفرعّي ﴿مَا﴾.

وإنّما قال ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ في الآية الثّانية [البقرة: 145]؛ لأنّ هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى [البقرة: 120] في سورة واحدة وليس بينهما بعيدُ فصل، فكان العلم الّذي جاءه في أمر القبلة هو جزئيّ من عموم العلم الّذي جاء في الآية [البقرة: 120] الّذي أبطل جميع ملّتهم، فكان جديرًا بأنْ يشار إلى الموضع الّذي يتناول القبلة بأنّه جزئيّ وذلك بإيراد ﴿مِن﴾ الابتدائيّة[1].

قال في البحر المحيط: "وَجَاءَ فِي هَذَا المَكَانِ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ﴾، وَقَالَ قَبلَ هَذَا: ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ﴾، وَجَاءَ فِي الرَّعْدِ: ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ﴾ [الرعد: 37]، فَاخْتَصَّ مَوضِعًا بِـ﴿ٱلَّذِى﴾، وَمَوضِعَيْنِ بِـ﴿مَا﴾، وَهَذَا المَوْضِع بِـ﴿مِنْ﴾، وَالَّذِي نَقُولُهُ فِي هَذَا: أَنَّهُ مِنَ اتِّسَاعِ العِبَارَةِ وَذِكْرِ المُتَرَادِفِ، لِأَنَّ (مَا) (وَالَّذِي) مَوْصُولَانِ، فَأَيًّا مِنْهُمَا ذَكَرْتَ، كَانَ فَصِيحًا حَسَنًا، وَأَمَّا المَجِيءُ بِـ﴿مِنْ﴾ فَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى ابتِدَاءِ بَعْدِيَّةِ المَجِيءِ"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

الإتيان مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعوّقاتٍ، والمجيءُ فيه شدّة وصعوبةٌ

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيءُ ففيه شدّة وصعوبةٌ، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[3]، وقد ظهر ذلك في استعمال القرآن الكريم؛ حيث استعمل الفعلين الدّالّين على مفهوم المجيء والإتيان، في الآية نفسها، والإتيانُ يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص، وعبّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/38-39.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جاء) (جيأ) (أتى).

به عن تحصيل الآيات وتقديمها لهم، فالفعل يدلُّ على أنّه لو تيسّر لك أن تأتي بكلّ آية تدلّ على صحّة قبلتك، فإنّهم لن يتّبعوها، فهنا استعمل الإتيان، وعندما تحوّل الخطاب إلى التّحذير والتّخويف من اتّباعهم والزّجر والوعيد كان المناسب لهذا السّياق أنْ يستعملَ فعلَ المجيء؛ ليتناسب مع شدّة التّحذير الّذي فيها؛ لأنّ المجيءَ فيه شدّةٌ وصعوبةٌ، فناسب كلُّ فعلٍ موضعَه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»